أهل مكة وتطور المجتمعات
دلالات مفردات القرآن عليها

الدكتور صالح أحمد العلي

بغداد

١- القرآن الكريم ومفرداته:

القرآن الكريم كتاب الله المنزل وحياً على الرسول (ص)؛ وهو معجز لا يستطيع البشر أن يأتوا بمثل سوره "وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله" (البقرة ٢٣) "قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله" (يونس ٣٨) "قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات" (هود ١٣).

والإعجاز المميز للقرآن الكريم هو في صياغة تعابيره وفي أفكاره. أما مفرداته فهي عربية معروفة عند أهل مكة وليست غريبة عنهم، وقد ذكر القرآن في إحدى عشرة آية نزوله بالعربية، أي أن مفرداته عربية "قرآنا عربياً" (الشورى ٧) "لساناً عربياً" (الأحقاف ١٢)، وأنه "بلسان عربي مبين" (الشعراء ١٩٥) وذكر في آيتين انعدام أية صلة له بالأعجمية (فصلت ٤٤، النحل ١٠٣)، وقد نزل بالعربية ليتيسر تبليغ الدعوة إلى العرب "فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً" (مريم ٩٧) "فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون" (الدخان ٥٨)، وهذا شأن الرسل الآخرين "وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" (إبراهيم ٤).

أنزل القرآن الكريم "حكماً عربياً" (الرعد ٣٧) ونزل بهذه اللغة "لقوم يعلمون" (فصلت ٣) "لعلهم يتذكرون" (الدخان ٥٨) و"لعلكم تعقلون" (يوسف ٢، الزخرف ٣) و"لعلهم يتقون" (الزمر ٢٨).

يتبين من هذه الآيات أن مفردات القرآن الكريم وتراكيبه ولغته كانت واضحة عند من نزلت فيهم، ولا ريب في أن مفاهيم بعض هذه المفردات تطورت منذ زمن مبكر مما حمل عدداً من العلماء منذ القرن الثاني الهجري على تأليف كتب توضح المدلولات الأولى للمفردات المتعددة التي تطورت معانيها فصارت تختلف عن مدلولاتها الأولى في القرآن، وقد ذكرت المصادر أكثر من أربعين مؤلفا(١) خصص كل منها لغريب القرآن وتفسير مدلولاتها الأولى، هذا بالإضافة إلى دراسات ضمتها كتب بحثت في مواضيع أخرى من القرآن الكريم.

والقرآن الكريم هو في المقام الأول كتاب هداية يوضح معالم الدين الإسلامي بعقائده ومبادئه ومتطلباته. ويدعو إلى اعتناقها والسير عليها لضمان السعادة في الدنيا والآخرة، لذلك فإن أكثر مفرداته تتعلق بهذه العقائد والفرائض الدينية بما في ذلك ما يتصل بذات الله تعالى، والملائكة، والإنس، والجن، والفرائض الإسلامية وأركانها الأساسية بما في ذلك الصلاة والصوم والصدقات والزكاة، وأشار إلى ما يتصل بالدعوة إلى عدد من الظواهر والأحوال الفلكية الطبيعية والجغرافية والبشرية، وتردد كثيراً ذكر المفردات المتصلة بالإنسان وأحواله وأساليب المعرفة وطرقها، ومفردات هذه المواضيع مهمة وجديرة بالدراسة إلا أننا لن ندرسها في هذا المقال لأنها خارج نطاق بحثنا.

تقتصر دراستنا الحالية على المفردات المعبرة عن حياة المجتمع السياسية والاجتماعية ودلالاتها على توضيح كيانات المجتمعات وتطورها، وقد نصت آيات القرآن الكريم على أن بعضها كان قائماً إبان ظهور الدعوة الإسلامية. إلا أن كثيراً من هذه المفردات تتصل بأزمنة وعهود ماضية. وورودها في القرآن الكريم يدل على أنها كانت معروفة في زمن نزوله بلسان عربي "مبين" وبعضها

(١) انظر: "معجم المعاجم" لأحمد الشرقاوي إقبال ص٥-٣٠، وانظر الفهرست للكتاب. دار الغرب الإسلامي.

يتكرر ذكره مما يدل على سعة أهمية الفكرة التي تعبر عنها، وبعضها لا يذكر إلا مرة واحدة أو مرات قليلة؛ وقلة ذكرها لا يكوّن دليلاً قاطعاً على ضعف الفكرة التي تعبر عنها ومحدوديتها إذ إن القرآن جاء لتوضيح معالم الدين والحث على نشره وهداية الناس، دون التبسط في وصف شامل للأحوال تبعاً لترتيب زمن حدوثها. وقد نص القرآن الكريم في ما يتعلق بالأنبياء أنه لم يقص أخبار كافة الأنبياء، وإنما اقتصر على بعضهم "منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" (غافر ٧٨)، كما أنه حدد بأن الغرض ليس السرد التاريخي وإنما لما له من الأحوال التي تواجهها الدعوة الإسلامية "وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك" (هود ١٢٠)، "سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلاً" (الإسراء ٧٧).

الدعوة في العهدين المكي والمدني ودلالات السور عليها:

تطلب نشر الدعوة الإسلامية مراعاة الأحوال العامة والاجتماعية والحضارية التي يعيشها الأفراد الذين تهدف الدعوة إلى هدايتهم، واقتضت كذلك عرض بعض أحوال الماضين ومواقفهم من الدعوات المشابهة للدعوة الإسلامية. وفي القرآن الكريم آيات فيها معلومات غير قليلة، وكثير منها يعكس الأحوال السائدة في زمن نزولها، ومن المعلوم أن الإسلام في زمن الرسول (ص) مر منذ بدء نزول الوحي في مكة إلى توقفه عند وفاة الرسول (ص) بمرحلتين متساويتين تقريباً في الزمن، هما العهد المكي والعهد المدني، ويبلغ كل منهما قرابة إحدى عشرة سنة، وظلت المبادئ الأساسية التي دعا إليها، وكثير من الأساليب التي اتبعها ثابتة طوال العهدين، إلا أن الأحوال العامة كان فيها كثير من التباين بين العهدين.

كانت الدعوة الإسلامية في العهد المكي، أي في السنوات العشر الأولى من بدايتها موجهة بالدرجة الأولى إلى أهل مكة حيث نشأ فيها الرسول (ص) وأقام

طيلة تلك السنوات، ولم يخرج منها خلال سني الدعوة إلا مدة قصيرة توجه إلى الطائف ولم يلق استجابة من أهلها، كما أنه خلال هذا العهد لم يتصل إلا بعدد قليل من أفراد عشائر عربية متعددة عند قدومهم القصير إلى أسواق مكة أو الحج إليها، ولم يثمر الاتصال؛ لذلك كان الاهتمام الأكبر للرسول (ص) موجهاً إلى أهل مكة ودعوتهم للاستجابة للدين الجديد، وكان هذا يقتضي معرفة سليمة بأحوال أهلها للإفادة منها بما يؤمن نشر الدعوة فيهم، وفي آيات القرآن الكريم صدى لذلك، حيث إن أكثر الآيات التي نزلت في هذا العهد توضح مبادئ الإسلام وعقائده وأفكاره، وتشير إلى كثير من أحوال أهل مكة، وبخاصة ما يتصل منها بالدعوة إلى الإسلام ونشره فيهم، ولعل مما يدخل في ذلك ذكر كثير من الآيات أحوال الأمم السابقة ومصائرهم التي تحكمت في كثير منها مواقفهم من دعوات الأنبياء.

لم تكن للرسول (ص) في مكة سلطة سياسية على أهلها، وكانت الأفكار الرئيسة التي ركز عليها هي المبادئ الأساسية للإسلام بما في ذلك الوحدانية الخالصة وامتدادها الكوني، والملائكة، والبعث بعد الموت، ويوم الحساب في الآخرة، والجنة والجحيم. واعتنق الإسلام أفراد تزايد عددهم بمرور الأيام في وجه مقاومة عنيفة.

أما في العهد المدني فكانت للرسول (ص) سلطة عليا على العدد الكبير من المسلمين المكونين الأكثرية في المدينة، علماً بأن سلطته لم تكن شاملة لكل المدينة، وإنما كان يحدها وجود جالية يهودية كبيرة لم تذعن لسلطة الرسول (ص)، ولم تستجب لدعوته، وإنما كونت معارضة سياسية وفكرية، وأثرت في خلق عدد من المعارضين والمنافقين، بالرغم من أن الآيات القرآنية أكدت على أن الإسلام يدعو إلى الوحدانية التي دعا إليها أنبياؤهم الذين أحلتهم الآيات القرآنية مكاناً رفيعاً.

وفي العهد المدني وجه الرسول (ص) أكثر جهده إلى تنظيم المجتمع على

وفق الأسس التي يدعو إليها الإسلام، وكان مجتمع أهل المدينة من الأنصار ومن أهل كثير من المناطق المجاورة التي تتابعت في الانضمام إلى الإسلام، مجتمعاً، زراعياً، ريفياً. ولم يكن لهم إسهام واسع في التجارة المحلية والعالمية، فلم يكن لأعمالها المكانة التي كانت لها عند أهل مكة.

وفي العهد المدني كرس الرسول (ص) اهتماماً، واسعاً في تثبيت سلطته العليا على الدولة الجديدة، وتطلب ذلك معالجة موقف اليهود الفكري والسياسي، وكذلك أمر الفئات القلقة من المنافقين، ومقارعة مشركي قريش. ثم توسيع الدولة لتضم مكة، وشبه جزيرة العرب. ولذلك أعطى معالجة العلاقات السياسية "الخارجية" مكانة خاصة لم تكن لها في العهد المكي، ثم إن معالجة المعارضة والعمل على ضمها إلى حظيرة الإسلام لم تكن من النوع أو الدرجة التي كانت عليها في مكة.

يتبين من العرض المقتضب الذي قدمناه أعلاه أن الأحوال العامة للدعوة الإسلامية قضت أن تكون الإشارات إلى أحوال مجتمع مكة والمجتمعات القديمة وتطوراتها هي أوفر في العهد المكي، ولما كان البحث الحالي محدداً بهذا، فإنه ينبغي أن يكون المعتمد الرئيسي لمادته هو الآيات القرآنية التي نزلت في مكة، غير أن تحديد هذه الآيات بدقة تعترضه صعوبات وخاصة في ما نزل في العهد المكي لأن القرآن الكريم لم ترتب سوره تبعاً لزمن نزولها، فاقتصر العلماء المسلمون على ذكر السور المكية والمدنية بشكل عام لم يمتد إلى تحديد دقيق لزمن نزول كل سورة، علماً بأن في بعض السور آيات نزلت في أزمنة متباعدة، وإن كانت في عمومها مكية أو مدنية، وقلما أشارت السور المكية إلى حوادث محدد زمنها كإشارات السور المدنية إلى حوادث معروف زمن حدوثها مثل أخبار الغزوات، وبعض الحوادث التي جرت في المدينة.

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين تحديد زمن نزول الآيات وتنظيمها تبعاً

لزمن نزولها، غير أن هذه المحاولات قليلة وليست نهائية، وخاصة في الآيات المتصلة بالعقائد وفي ذكر أحوال الماضين، لذلك فإننا في بحثنا الحالي نفترض أن الآيات "مكية" إذ أشارت إلى المعارضة التي لقيتها الدعوة، وإلى الأفراد المعارضين، وما يتصل بمكة وأحوالها وكذلك معظم، إن لم يكن كل، ما أشار إلى أحوال الماضين وما حاق بهم، وربما كثيراً من أخبار الأنبياء.

٢- مكة وأهلها في القرآن الكريم:

تردد في القرآن الكريم ذكر مكة وأهلها أكثر من أي مركز حضري آخر، ولها فيه أسماء وأوصاف متعددة، منها "مكة" "وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة" (الفتح ٢٤) و"بكة" "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين" (آل عمران ٩٦).

ووصفت بأنها قرية "وكأيّن من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك" (محمد ١٣) "وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم" (الزخرف ٣١) "لتنذر أم القرى ومن حولها" (الشورى ٧)، "ولتنذر أم القرى" (الأنعام ٩٢).

كما وصفت بأنها بلد "وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً" (البقرة ١٢٦)، ويضيف "وارزق أهله من الثمرات" (البقرة ١٢٦)، "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها" (النمل ٩١) "لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد" (البلد ١، ٢) "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين" (التين ١-٣).

ويتصل بمكة البيت الحرام، والمسجد الحرام، والكعبة وهي في مكة ولها قدسية خاصة وعلاقة وثيقة بالحج.

"وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل" (البقرة ١٢٧)، "وإذ بوأنا

لإبراهيم مكان البيت" (الحج ٢٦)، "وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً" (البقرة ١٢٥)، "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (قريش ٣، ٤) "وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصدية" (الأنفال ٣٥).

وسماه القرآن الكريم "البيت العتيق" (الحج ٢٩، ٣٣) وذكر الكعبة "البيت الحرام" (المائدة ٩٧)، وإلى الكعبة "هدياً بالغ الكعبة" (المائدة ٩٥).

وذكر المسجد الحرام في خمس عشرة آية (البقرة ١٤٤، ١٤٩، ١٥٠، ١٩١، ١٩٦، ٢١٧، المائدة ٢، الأنفال ٣٤، التوبة ٧، ١٩، ٢٨، الإسراء ١، الحج ٢٥، الفتح ٢٥، ٢٧).

وذكر من مؤسسات المسجد الحرام عمارته (التوبة ١٩) كما ذكر "حاضري المسجد الحرام" (البقرة ١٩٦) وهي المستوطنات القريبة من مكة ومرتبطة بها.

لا ريب في أن بعض هذه الآيات، وخاصة أكثر ما يتصل منها بالحج هي آيات مدنية، وهي تصف مؤسسات قديمة أولتها مكة أهمية خاصة منذ قبل مجيء الإسلام، وهي تشير إلى مصدر قدسيتها، فالبيت هو بيت الله، وقد رفع إبراهيم قواعد للناس (البقرة ١٢٧)، وإليه الحج (البقرة ١٩٦، آل عمران ٩٧) وهو البيت الحرام (المائدة ٩٧).

إن سمات مكة والخصائص التي ذكرها القرآن الكريم قديمة ترجع إلى عهود سابقة، وبرزت أهميتها منذ أن قدمها إبراهيم واتخذ مقامه فيها، وكانت أرضها مجدبةً "ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع" (إبراهيم ٣٧) وإنه وإسماعيل رفعا قواعد البيت (البقرة ١٢٧). (وانظر الحج ٢٦)، وهو بيت الله المحرم (إبراهيم ٣٧) وانظر عن البيت الحرام (المائدة ٢، ٩٧) وقد جعل الله تعالى البيت مثابة للناس وأمناً (البقرة ١٢٥)، وجعله قياماً للناس (المائدة

٩٧) وفيه المسجد الحرام وهو "البيت العتيق" (الحج ٢٩، ٣٣).

جعل الله تعالى مكة "هذه البلدة الذي حرمها" (النمل ٩١) ولذلك فإن الله جعل هذا البيت آمناً (البقرة ١٢٦، إبراهيم ٣٥، التين ٣)، ولا بد أن الله تعالى استجاب دعاء إبراهيم "وارزق أهله من الثمرات" (البقرة ١٢٦) وذكر عن قريش "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (قريش ٣-٤).

مجتمع أهل مكة:

إن الأمن الذي أشار إليه القرآن الكريم في الآيات التي ذكرناها كان له أثر في الاستقرار وفي قيام مؤسسات إدارية وتنظيمية تنسجم مع الأمن وتحقق حياة حضرية سلمية، وتضعف عنف العصبية القبلية الذي يظهر في سلوك أهل البادية خاصة ويزيد من قلق الحياة ويبرز أخطارها.

أشار القرآن الكريم إلى أهل مكة "رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله الثمرات" (البقرة ١٢٦) "وإخراج أهله منه أكبر" (البقرة ٢١٧). وقد ذكر الأهل في ١١٧ آية، منها ثلاث وثلاثون عن أهل الكتاب وخمس عشرة آية عن أهل القرى وآيتان عن أهل المدينة، وآية عن أهل يثرب وآيتان عن أهل البيت (بيت الرسول (ص)). وسياق الآيات التي ذكر فيها الأهل مقرونة بمكة، والمدينة ويثرب، يشير إلى أن المقصود بها مجموع السكان المستقرين بصرف النظر عن تفرعاتهم في الدم أو الحرف أو التنظيمات الاجتماعية.

وذكر القرآن الكريم "الملأ" في ثلاثين آية أكثرها تتعلق بفرعون، ومنها عدد قليل عن بني إسرائيل كلها تدل على مجموعة كبيرة من السكان أو أصحاب الهيمنة والسلطان فيها، إلا أنه لا يوجد أي تطابق للكلمة على أهل مكة.

لم يتردد في القرآن الكريم ذكر المجموعات القائمة على روابط محدودة، فالقبيلة لم تذكر إلا في واحدة (الحجرات ١٣)، والعشيرة ذكرت في ثلاث آيات فقط (الشعراء ٢١٤، التوبة ٢٤، المجادلة ٢٢) ولا بد أن قلة ذكرها يشير إلى ضعف فاعليتها في كيان المجتمع "غير أنه ورد ذكر ذوي القربى" في ست عشرة آية، يضاف إليها ذكر الوالدين والأقربين. وعدد كبير من الآيات ذكر فيها الآباء والولد.

إن الأمن الذي يدعمه الحرم المقدس ثبت استقرار أهل مكة، وأنمى روابط ومصالح مشتركة بين أهلها تطغى على روابط الدم. غير أن هذا لم يمنع حدوث انقسامات وتكتلات فرعية بين العشائر والرؤساء والأفراد، أدت إلى ظهور مخالفات تعبر عن الانقسامات، ولم تؤد إلى مقاتلات كالذي حدث بين عرب أهل المدينة من الأوس والخزرج. ولم يشر القرآن الكريم إلى الانقسامات والتكتلات القبلية، والتي أفاضت بها بعض الأخبار، فقد عرض محمد بن حبيب في كتابه "المنمق" تطور نظم إدارة مكة والأحلاف التي سبقتها الانقسامات، وهي حلف المحلفين ولعقة الدم، وحلف الفضول الذي شهده الرسول (ص) في صباه، فذكر أن قصيّاً بعدما جمع قريشاً وأمن سيادته في مكة نظم إدارتها وجعل أعمالها حميدة.

"فلما كبر قصي ورق جعل الحجابة والندوة والسقاية والفرادة واللواء لعبدالدار، وكان أكبر ولده فكان ضعيفاً مسناً... فلما هلك قصي أقام عبد مناف على إمرته وقام بأمر قريش، فأسندت إليه قريش بعد موت أبيه أمورها، واختط بمكة رباعاً، واتخذ أموالاً بعد الذي كان قصي قطع لقومه، فهلك عبد مناف يوم هلك فكان ما سميتا لعبد الدار"[(١)]... ويتضح من هذا أن قصياً وضع المؤسسات الإدارية التي أنشأها بيد ولده الأكبر عبدالدار، أما الأمور السياسية العامة فكانت

(١) المنمق ١٨-١٩، وانظر: أسباب الأشراف للبلاذري ٥٣/١.

بيد عبد مناف الذي ازدادت ثروته ونفوذه، ولكن لم تذكر المصادر اختلافه مع أخيه عبدالدار.

ويتابع ابن حبيب تطور الأحداث فيقول: "ثم إن بني عبد مناف أرادوا أخذ ذلك منهم (من بني عبدالدار) وقالوا نحن أحق به، فأبت عليهم بنو عبدالدار، وتفرقت قريش وتباينت بعد ذلك، وتشتت أمرها وتفرقت كلها"(١) ويذكر أنه على أثر ذلك أصبحت قريش في ذلك فرقاً، ومنهم من يقول عبد مناف أولى بالبيت، ومنهم من يقول عبدالدار أولى(٢).

وذكر التكتلات العشائرية التي انعكست من هذا وكان مع بني عبد مناف بنو أسد بن عبدالعزى، وبنو زهرة بن كلال وبنو تيم بن مرة، وبنو الحارث بن فهرة.

وكان مع بني عبدالدار بنو سهم بن عمرو، وبنو جمح بن عمرو، وبنو مخزوم بن يقظرة، وبنو عدي بن كعب.

وخرجت بنو عامر بن لؤي من الفريقين جميعاً.

فبنو عبد مناف وحلفاؤهم يقال لهم المطيبون، وبنو عبدالدار وحلفاؤهم يقال لهم الأحلاف(٣).

وذكر ابن حبيب تنظيم الاستعداد للقتال، فعبيت بنو عبد مناف لبني سهم، وبنو عبدالدار لبني أسد، وبنو مخزوم لتميم، وبنو جمح لبني زهرة، وبنو عدي لبني الحارث بن فهر، "ولا بد أنه رئي في هذا التنظيم تكافؤ القوى بين العشائر

---

(١) المنمق ١٩.

(٢) االسابق نفسه ٤٢.

(٣) المنمق ٢٠، وانظر ص٤٤، ٢٢١، وانظر عن لعقة الدم المحبر ١٦٦، وأنساب الأشراف ٥٦/١.

المتقابلة، وربما أخذ بنظر الاعتبار مشاعر عدم الألفة بين المتقابلين غير أنه لم ينشب قتال، وفشا بينهم صلح جنب إراقة دماء كانت ستعمق الجراح وتؤدي إلى نتائج أوسع، وبموجب الصلح أعطيت بنو عبد مناف السقاية، وبنو أسد الرفادة، وتركت الحجابة والندوة لبني عبد الدار(١). ولم يذكر ابن حبيب شيئاً أعطيته بقية العشائر.

وفي أيام شباب الرسول (ص) عقدت بنو هاشم، وزهرة وتميم والمطلب حلفي الفضول في دار عبد الله بن جدعان لنصرة المظلوم(٢). ويظهر هذا الحلف استمرار الانقسام بين عشائر أهل مكة، ولكنه لم يصل من العمق درجة نشوب قتال بينهم.

وذكرت المصادر خصومات بين عشائر مكية مفردة أبرزها ما حدث بين بني عبد شمس وبني عدي، فذكر الأزرقي: "كان بين عبد شمس بن عبد مناف وبين بني عدي بن كعب حرب في الجاهلية، وكانت بنو عدي تدعى لعقة الدم، وكانوا لا يزالون يقتتلون بمكة، وكانت مساكن بني عدي ما بين الصفا إلى الكعبة، وكانت بنو عبد شمس يظفرون عليهم ويظهرون، فأصابت بنو عبد شمس منهم ناساً، وأصابوا من بني عبد شمس ناساً، فلما رأت ذلك بنو عدي علموا أن لا طاقة لهم بهم، حالفوا بني سهم، فقطعت لهم بنو سهم كل حق أصبح لبني عدي من بني سهم، حق فضل بن عبد العزى، وهو حق عمر بن الخطاب وحق زيد بن الخطاب وحق مطيع بن الأسعد، هؤلاء الذين باعوا مساكنهم، وكان بنو سهم من أعز بطن في قريش وأخصه وأكثره(٣).

وذكر ابن حبيب أن الذي أهاج العداء بين بني عدي وبني عبد شمس، أن

---

(١) المنمق ٢٠، المحبر ١٦٧، أنساب الأشراف ٦٥/١.
(٢) المنمق ٤٦، المحبر ١٦٧.
(٣) تاريخ مكة ٩٠/٢، ٢٦٠.

بني عامر بن عبدالله ذبحوا بختية لبني عبد شمس، فقرر هؤلاء إخراج بني عامر "فارتحلوا وتعرض بنو سهم لهم وأنزلوهم بين ظهورهم[١]. ويذكر: "أراد حرب بن أمية إخراج بني عدي بن كعب من مكة فاجتمعت لذلك بنو عبد شمس بن عبدمناف وبنو نوفل بن عبدمناف، وغضب لعبدالمطلب بنو هاشم وبنو المطلب وبنو زهرة، وغضبت بنو سهم لبني عدي، فمنهم من الأحلاف فمنعوهم، فلما رأى ذلك حرب بن أمية كف عنهم[٢].

ذكر ابن حبيب التعاقب على رئاسة قريش منذ زمن قصي إلى أن ولي الرئاسة حرب بن أمية بعد موت عبدالمطلب، ثم قال: "فلما مات حرب تفرقت الرئاسات والشرف في بني عبد مناف وغيرهم من قريش، وذكر أسماء رؤساء كل من بني هاشم، وبني المطلب، ونوفل بن عبد مناف، وأسد بن عبد العزى، وعبدالدار، وزهرة، وتيم بن مرة، ومخزوم، وعدي، وسهم، وجمح، وعامر ابن لؤي، ومحارب، والحارث بن فهر"[٣] غير أنه ذكر في مكان آخر: "لم يكن من قريش قبيلة إلا وفيها من يقوم بأمرها ويطلب ثأرها إلا عدي بن كعب"[٤] وذكر كذلك منافرات ومفاخرات بين رجال من مختلف القبائل[٥]، وخصومات بين أمية وزهرة[٦]، كما ذكر أن "أسد بن عبدالعزى أشأم بطن في قريش"[٧] ولعله يقصد قلة من ارتبط بهم.

ذكر القرآن الكريم قريشاً مرة واحدة وخصها بسورة قصيرة باسمها أشار فيها إلى الإيلاف ورحلتيها التجاريتين، وتوفر الأمن وسبل المعيشة لها. ولم يذكر

---

(١) المنمق ٨١.
(٢) السابق نفسه ٨٩.
(٣) السابق نفسه ٢١١، وانظر أيضاً ١٩، ٤٥.
(٤) السابق نفسه ١٤٣.
(٥) السابق نفسه ١٠٠.
(٦) السابق نفسه ٤١.
(٧) السابق نفسه ٢٨.

اسم أية عشيرة غيرها.

وذكر مؤسسة تنظيمية واحدة هي "النادي" "فليدع ناديه" (العلق ١٧)، الذي ذكره عند قوم لوط أيضاً "وتأتون في ناديكم المنكر" (العنكبوت ٢٩) ويدل سياق الآية أن النادي مجمع رجال يقومون فيه بأعمال اجتماعية، وأن جماعته متعاونون فيما بينهم، ولعل لهم مكاناً خاصاً يجتمعون فيه، ولا يشترط أن يكونوا من عشيرة واحدة، ولم يرد ذكر موقع ناد في الكتب التي عنيت بخطط مكة الأولى وأبرزها كتابا الأزرقي والفاكهي.

وذكر تعالى في القرآن الكريم مؤسستين إداريتين في مكة هما "سقاية الحاج وعمارة البيت" (التوبة ١٩) ولم يذكر غيرهما.

وأشار القرآن إلى عدد من الأفراد الذين قاوموا الدعوة الإسلامية، ولم يصرح باسم أحد منهم غير اسم عمه أبي لهب، وامرأته التي كناها "حمالة الحطب" وأشار كذلك إلى مجموعات قاومت الدعوة وسماهم "المقتسمين" (الحجر ٩٠) "والمستهزئين" (الحجر ٩٥)، وذكرت كتب السيرة والتفسير أسماء من أشار إليهم القرآن الكريم، وهم جماعة من ذوي النفوذ، غير أن مقاومتهم كانت فردية متفرقة وليست جماعية، فلا يوجد ما يدل على أن أفرادها كانوا منتظمين بمنظمة سياسية واجتماعية محددة.

التجارة:

اتخذ إبراهيم مقامه في مكة وهي "بوادٍ غير ذي زرع" (إبراهيم ٣٧) واعتمد أهلها في معيشتهم على التجارة، وقد دعا إبراهيم ربه "وارزق أهله من الثمرات" (البقرة ١٢٦) "فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات" (إبراهيم ٣٧)، وأشار القرآن أن الله تعالى "أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" (قريش ٤) وذكر "أولم نُمكّن لهم حرماً آمناً يُجبى إليه ثمرات كل

شيء رزقاً من لدُنّا" (القصص ٥٧).

وذكر ابن حبيب: "كانت قريش تجاراً، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة، ثم اتسعت لبلد الإيلاف".

وقد نشرت دراسات حديثة مستوعبة عن تجارة مكة[١] ويكفي أن نشير إلى أن مظهر هذا التوسع التجاري تقدير للمال واعتباره من أكبر مصادر القوة، ونجد هذا بكثرة المفردات القرآنية المتصلة بالمال ومعاملات السوق والتجارة واستعملت مجازاً في أمور العقائد مثل يوم الحساب، ووزن الأعمال، والأجر، والربح والخسارة[٢].

المال والبنون مصدر القوة:

ذكر القرآن الكريم المال والبنين في آيات كثيرة تظهر أنهما كانا المصدرين الرئيسيين لقوة الأفراد في المجتمع (التوبة ٥٥، ٨٥، مريم ٧٧، الإسراء ٦٤، نوح ١٢، ٢١، الكهف ٣٤، آل عمران ١٠، ١١٦، سبأ ٣٥، ٣٧، المؤمنون ٥٥، الشعراء ٨٨، المجادلة ١٧، التغابن ١٥، المنافقون ٩، القلم ١٤).

وذكر "المال والبنون زينة الحياة الدنيا" (الكهف ٤٦) وأن "الحياة لدينا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد" (الحديد ٢٠) و"واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة" (الأنفال ٢٨).

وأشار في عدد محدود من الآيات إلى خصومات بين الآباء والأولاد "إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم" (التغابن ١٤) ولعل هذه الأزمة كانت شديدة خطرة، فنزلت عدة آيات تطلب "بالوالدين إحساناً" (البقرة ٨٣، النساء ٣٦،

---

(١) انظر في ذلك كتابنا "محاضرات في تاريخ العرب". ودراسة لامنس "مكة في عصر الهجرة" (بالفرنسية) وكتاب كرون "تجارة مكة" (بالإنجليزية).

(٢) انظر تفاصيل أوفى في كتاب توري "التعابير التجارية في القرآن" (بالإنجليزية).

الإسراء ٢٣، الأحقاف ١٥).

إن اشتغال أهل مكة بالتجارة أنمى مكانة الفرد، لأن التجارة قوامها الفرد، وهي تقوي الفردية وتوليها أهمية خاصة، وتزيد من التباين بين الأفراد تبعاً لما يكسبونه من ثروات، فالتجارة تقوي الفردية، وتساعد على خلق ذوي نفوذ قائم على الثروة المكتسبة وما تجره من حياة مادية مترفة. فالرابطة القبلية وصلة الدم لم تكن المحرك الأقوى في مجتمع مكة الذي كانت أبرز مظاهر القوة فيه هي الأفراد وما يعتمدون عليه من ثراء، ولعل من آثار هذا أن المسلمين في مكة كانوا من عشائر متعددة، انضم كل فرد منهم إلى الإسلام بدوافع ذاتية، ولم تعرف عشيرة أسلمت بكاملها، كما أن الأقربين إلى الرسول (ص) لم يسلم منهم إلا ابن عمه علي، ثم حمزة، وإن أبا لهب عمه انفردت باسمه آية تلعنه. ولا يخفى أن الدعوة في مرحلتها الأولى كان فيها المسلمون يجتمعون في دار الأرقم المخزومي، وهي في بني مخزوم بعيداً عن مساكن أعمام النبي.

ربط نشاط مكة التجاري أهلها بعدد من أهل المناطق الأخرى، وخاصة الواقعة على طريق تجاراتهم إلى اليمن، وإلى الشمال والشرق، ويتبين من قائمة النساء من بني عبد المطلب أن عدداً كبيراً منهن تزوجن من رجال من غير أهل مكة[١]. ولا بد أن مثل هذا حدث في نساء عشائر مكة الأخرى، وإن لم تتم حتى الآن دراسة مستوعبة عن غير نساء عبد المطلب.

ومع أن هذه الزيجات كانت من رجال مكة، إلا أن لها أثراً لم تدرس تفاصيله في إيجاد روابط يختلف مدى متانتها مع أهل مكة، ولعل مكة تميزت عن غيرها من مجتمعات الحجاز في ذلك، وهي مظهر وعامل في توثيق الروابط بين أهل مكة وغيرهم. وذكر ابن حبيب قائمة بأسماء رجال من قريش كانت أمهاتهم

---

(١) انظر الفصل الذي كتبناه عن عشيرة الرسول (ص) في كتابنا "محاضرات في تاريخ العرب".

من أديان متعددة دون أن يحدد أصولهن[١].

ذكر ابن حبيب في كتابه "المنمق" قائمة طويلة بأسماء رجال كثيرين حالفوا رجالاً من أهل مكة، وكثير ممن ذكرهم من ذوي المكانة المتميزة، وكانوا يقيمون في الأرجح إقامة دائمة في مكة، ولعل أعداداً أكبر لم تذكرهم المصادر كانت تقيم أيضاً في مكة كأفراد أو مجموعات، وترتبط برجال أو عشائر مكية.

وذكر من دخل في أحلاف قريش من اليمن ومنهم الحضارمة، وقد سمى ابن حبيب من ذكرهم حلفاء وأشار إلى أن ذلك تم قبل الإسلام، ثم أبطله الإسلام[٢]. ومن الواضح أن إبطاله راجع إلى تكوين الدولة الإسلامية ذات السلطة العليا الواسعة التي تفقد إقامة الأحلاف مبرر وجودها.

وذكر قائمة بأسماء من دخل من قريش في الإسلام لغير حلف إلا بصمد أو بصلته أو برحم أو جوار أو ولاء[٣].

وذكر روايات في زمن إبطاله: فقال: إن عثمان قضى أن كل حلف كان ورسول الله (ص) بمكة فهو جاهلي، وما كان من الهجرة فهو إسلامي، وأن لا حلاف في الإسلام.

وقال عليّ: كل حلف بطل من قبل نزول الإيلاف قريش فهو جاهلي، وكل حلف كان بعد نزولها فهو منقوض.

وقال عمر بن الخطاب: كل حلف كان قبل الحديبية فهو مشدود، وكل حلف كان بعدها فهو منقوض.

---

(١) المحبر ٨ ـ ٥٠٦
(٢) المنمق ٣١٩.
(٣) السابق نفسه ٣٠١.

وقال ابن عباس: كل حلف كان قبل نزول، "ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت أيمانكم فأتوهن نصيبهن" مشدود، وكل حلف بعدها فهو منقوض[1].

ولم يحدد علي ولا ابن عباس زمن إلغائه بدقة، وإن كانت هذه التواريخ متقاربة.

الأولياء والولاية:

وردت كلمة الولاء والولاية ومشتقاتها في مواضع عديدة في القرآن الكريم، مما يشير إلى أهميتها عند ظهور الإسلام، ولا ريب في أن كثيراً من الآيات التي ذكرت "الولاية" هي مدنية متأخرة عن العهد المكي، ولكن جذورها مكية، وفي كتب التاريخ إشارات إلى الولاء في مكة مما يشير إلى امتداد انتشاره وأهميته في مجتمعها.

ذكر القرآن الكريم "ولكل جعلنا موالي مما ترك الوالدان والأقربون" (النساء ٣٣)، "فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم" (الأحزاب ٥)، "ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً" (الإسراء ٣٣).

وذكر "لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان" (التوبة ٢٣) "والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا" (الأنفال ٧٢) وانظر (النساء ٨٩).

"والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض" (التوبة ٧١). "فزيّن لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم" (النحل ٦٣)، وانظر (النساء ٧٦، الأعراف ٢٧، الأنعام ١٢١).

---

(١) المنمق ٣١٥.

وذكر أن "الظالمين بعضهم أولياء بعض" (الجاثية ١٩)، واليهود والنصارى" بعضهم أولياء بعض" (المائدة ٥١) "والذين كفروا بعضهم أولياء بعض" (الأنفال ٧٣) "والله ولي المؤمنين" (آل عمران ٦٨) و"ما لكم من دون الله من ولي ولا نصير" (البقرة ١٠٧، الشورى ٣١، العنكبوت ٢٢).

دلالات القرآن الكريم على المستوى الفكري وتوجهاته:

ذكرنا في أول المقال أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ليفهم أهل مكة الذين أول ما نزلت الدعوة فيهم، ولا بد أن هذه المفردات والتعابير القرآنية كانت معروفة عندهم، فهي تدل على مستواهم الفكري وتوجيهاته. وفي القرآن عدد من المفردات المتعلقة بالأحوال الاجتماعية والجغرافية والطبيعية والفلكية. وفيه أيضاً مفردات كثيرة تتعلق بالإنسان وأحواله، وبأساليب المعرفة وتقدير مكانة العلماء، ومفردات يكثر تردد بعضها عن أساليب المعرفة ومظاهرها، بعضها معتمد على استعمال الحواس مثل الرؤية، والبصر، والنظر، والحس، والشعور، وبعض هذه المفردات تعبر عن مختلف مراحل المعرفة، ومنها: الشك، والظن، والزعم، والشعور، والإدراك، والتذكر، والمعرفة، والدرس، والفهم، والفكر، والعقل، والفقه، والحكمة، والحكيم، وأكثرها من صفات الله تعالى.

وذكر من أساليب البحث: الجدال (٣٥) والمحاجة (١٢) والتخرص (٥) والبرهنة (٨) والتيقن (٢٩).

وكان المعتمد الأساس في نشر الدعوة على الحوار العقلي الهادىء المقنع، دون الغرض القسري "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن" (النحل ١٢٥)، "فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك" (آل عمران ١٥٩)، "لا إكراه في الدين" (البقرة ٢٥٦).

وجهت الدعوة ليستجيب لها الذين يعقلون (٤٨)، ومركز العلم والتفكير هو القلب (١٢٢) والفؤاد (١٦).

للعلم والعلماء مكانة متميزة في القرآن الكريم، وقد وردت كلمة العلم ومشتقاتها في ثمانمئة وخمسين موضعاً، منها مائة وستون موضعاً صفة لله تعالى، وعشرون للعلماء، ومئة وستون موضعاً للعلم. وأشار إلى العلاقة بين العلم والإيمان في عدة آيات (آل عمران ١٨، النساء ١٦٣، النحل ٢٧، الإسراء ٧، الحج ٥٤، القصص ٥٨، الروم ٥٦، محمد ١٦).

وذكر "إنما يخشى الله من عباده العلماء" (فاطر ٢٨) "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" (المجادلة ١١)، ويتصل بهذه الحكمة "يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً" (البقرة ٢٦٩).

كل هذه الآيات تشير إلى اهتمام بالفكر واتباع لأساليب المعرفة العلمية، ولم يول تقديراً لأساليب أخرى من المعرفة كالسحر والكهانة والشعر. ولم ينقد المشركون تقدير القرآن للعلم.

رجعية أهل مكة وجمود تفكيرهم:

ذكرت آيات قرآنية كثيرة أن أهل مكة كانوا في عقائدهم رجعيين متعصبين عن غير إدراك عقلي، فهم يسيرون على سنة الأولين (الأنفال ٣٨، الحجر ١٣، الكهف ٥٥، فاطر ٤٣) "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" (الزخرف ٢٣)، وذكر أن من أقوى حجج المشركين لعدم الإقبال على الإسلام أنه جديد بعيد عما يعبد آباؤهم (سبأ ٤٣، الأعراف ٧٠، ٧٣، هود ٥٦، ١٨٧، الشعراء ٣٠، ٥٣، النحل ٥١، النمل ٦٧، ٦٩، الصافات ١٧، ٦٩، الواقعة ٤٨، المؤمنين ١، الزخرف ٢٩).

استغرب المشركون من دعوة الرسول (ص) لأنهم لم يسبق فيهم نبي من قبل "لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم" (يس ٦) وقالوا "ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين" (المؤمنون ٢٤).

ورد عليهم القرآن "آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون" (البقرة ١٧٠).

إن الانتقاد الذي يوجهه القرآن الكريم ليس إلى مبدأ المحافظة وإنما إلى الأسس الخاطئة التي تقوم عليها تلك المحافظة، فهو يدعو إلى إقامة سنن على الأسس السليمة القديمة التي دعا إليها الأنبياء، "سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا" (الأحزاب ٦٢).

المجتمع وتركيبه

الإنسان الفرد في القرآن الكريم:

الإنسان الفرد هو اللبنة الأساسية التي جاء الإسلام لهدايتها وتوجيهها الوجهة السليمة المؤدية إلى إصلاحها وسعادتها؛ وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر الإنسان (٦٥) وبني آدم (٧) والإنس مقابل الجن (١٨) والمرء (١١)، والنفس التي تعني دخيلة الإنسان وذاتها (٢٩٥)، كما ذكر البشر (٣٧) والرجل (٤٧) والذكر (١٢) والأنثى (١٨) والمرأة (٢٦).

والبشر هم عباد الله، وقد تكرر ذكر العباد في أكثر من مئة آية، ومع أن "العباد" مفردها "العبد" إلا أنها لا تعني "الرقيق" الذي ذكر مقابلاً للحر في آية واحدة (البقرة ١٧٨)، فمعنى هذا في القرآن الكريم أقرب إلى ما نسميه اليوم "المواطنون"[١].

والإسلام يتطلب إصلاح الإنسان نفسه ودخيلته وسلامة أفكاره وسلوكه، وهو مسؤول عن تصرفاته وأعماله "كل نفس بما كسبت رهينة" (المدثر ٣٨) "لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" (البقرة ٢٨٦)؛ ويوم القيامة "لا يجزى والد عن ولده، ولا مولود هو جازٍ عن والده" (لقمان ٣٣) و"فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره" (الزلزلة ٧- ٨) "ولا تزر وازرة وزر أخرى" (الأنعام ١٦٤، الإسراء ١٥؛ فاطر ١٨؛ الزمر ٧).

غير أن الإنسان لا يحيا متفرداً معزولاً، وإنما يعيش في مجتمع يتبادل معه التأثير على تصرفاته وتوجهاته التي تؤثر في سلوكه وتوجهاته بأشكال مختلفة ودرجات متفاوتة؛ وهذه الروابط منوعة، وامتداداتها وسعتها متباينة ومتداخلة تبدأ

---

(١) انظر في تعريف "عباد" الحيرة: المناقب المزيدية ١٠٨/١، تاريخ الطبري ٤٣/٢.

من الأسرة: وقد ذكر القرآن الكريم الأب (١١٧) والوالد (٣) والوالدين (٢٠) والأم (٣٥) والوالدة (٤) والولد (٣٣) والأولاد (٢٥) والمولود (٣)، كما ذكر الأخ (٧٤) والأخت (١٤) والخال والخالة (٥) والعم والعمة (٥). وذكر اليتيم (٢٣) والأقربين (٧) وذوي القربى (١٦). وذكر العشيرة (٣) والقبيلة (١) والأمة (١) والشعب (١).

وللفرد حرية واسعة في الكلام والعمل والتنقل ضمن نطاق عام مما هو مرسوم في المجتمع، وهذه الحرية تتحكم فيها تقاليد عرف العرب بالحرص على مراعاتها، إلا أنها متعددة.

وفي تركيب المجتمع ذكر أشكالاً متعددة بعضها ذات سمات اقتصادية، أو سياسية متعلقة بالحكم، أو أخلاقية تتميز بالسلوك الخاص؛ ولا ريب في أن حدود بعضها غير واضح أو متداخل، وكثير منها أدخل في موضوع الأخلاق مما يكون عقبة من إجراء جرد محكم لها، ولذلك نقتصر هنا على إيراد بعض ما هو واضح الحدود، علماً بأن كثيراً منها متداخلة، غير محددة المدى.

ففي الحياة الاقتصادية ذكر الرزق (١٢٣) والمعيشة (٨) والكسب والنعمة (٤٨) والرخاء، والرغد (٤)، والإسراف (٢١)، والترف (٨) والبطر (٢).

وذكر من مقابلاتها: الفقر (١٢) والإملاق (٢) والخصاصة (١) والمخمصة (٢)، والحطمة (٢) والسراء والبأساء والضراء (٦) كما ذكرت الضراء منفردة (٣) والبأس منفرداً (١) والغارم (٥) والمقتر (١) والجوع (٤) وابن السبيل (٨).

وفي الحياة الاجتماعية ذكر الضعفاء والمستضعفون (٩) والمستكبرين (٦)، كما ذكر التابع (٢٥) والصاغر (٥) والعائل (١) والمسكين (٨) والذلة والأذلة (١٣) والأرذلون (٢) والمذموم المدحور والمخذول (٢).

وفي التكتلات السياسية ذكر: الأحزاب (١١) والشيعة والشيع والأشياع (١١) والطائفة (٢٠) والزمرة (٢) والعصبة (٤) والرهط (٢) والرادفة (١) والفرق والتفرق (٣٩) والملأ (٢٢) والنادي (١)، ويمكن أن ندخل في هذا الصنف الأهواء (١٧) والفساد (١١) والمفسدين(٢٠) والأمن (١٨) والآمنون (١٠) والخلفاء (٣).

وقد يدخل في هذا الصنف جماعات ذات سمات أخلاقية لبعضها صلة بالسياسية ومنها: المجادل (٢٩) والمرجفون (١) والمنكث (٦) والفاسق (٣٧) والشقاق (٦) والفاسد والمفسدون (٢١) والفاجر والفجار (٥).

ليس من اليسير تحديد السمة التي ينبغي توفرها بمن تطلق عليه، أي معرفة حدود الغنى أو التكبر مثلاً، كما أن الشخص الواحد قد يحمل أكثر من سمة واحدة: كالغنى والشح، والتكبر والبذخ، كما أنه يصعب الجزم بأن حاملي سمة معينة بينهم روابط تجعلهم طبقة متميزة، أو أن هذه السمات كانت ثابتة في الأشخاص، فقد يصبح الغني فقيراً، وبالعكس. وقد يتحرر المستضعفون من ذلهم واستكانتهم؛ فالمجتمع في هذا الأمر مرن غير جامد، ونظرة الناس هي التي تقرر مكانتهم، وليس القوانين والسنن، بما في ذلك الرئاسات السياسية.

لم تكن في مكة مؤسسات رسمية تعنى بتنظيم الأحوال الاجتماعية والاقتصادية، إذ إن المؤسسات التي ذكرتها المصادر في مكة كان أكثرها يعنى بالحج ويمس القادمين إليها أكثر مما هو للمقيمين فيها.

لا ريب في أن هذه الأحوال كان لها أثر في ما أولاه القرآن الكريم من أهمية سياسية في النظرة الكونية والمعتقدات الدينية، وفي السلوك الأخلاقي، وهي جديرة بالبحث، ولكننا لا ندخلها في بحثنا الحالي الذي يركز على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فحسب.

البلاد والمجتمعات

وردت في القرآن الكريم تعابير عن كثير من التضاريس الأرضية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: الأرض، والجبل، والوادي، والبحر، ومما ورد للمساكن وأحوالها: البيت، والدار، والمسكن، والقصور، والحصون، والعمارة، والخراب، والاندثار، والآثار والخواء، والتدمير. ووردت عن حركات السكان: سكن، وأقام، واستقر، وآوى، وثوى، وجثم، ولجأ، وخرج، وسافر، وهاجر، وضعن، وسرى، وطلع، ومنع.

وذكرت المساكن في ثلاث عشرة آية، والبنيان في ثمان وعشرين آية، وذكرت الدار الآخرة لمستقر الناس بعد البعث في ثلاثين آية، ووصفت بأنها دار القرار (غافر ٣٩) ودار الخلد (فصلت ٢٨) ودار السلام (الأنعام ١٢٧، يونس ٢٥)، وذكرت ديار الناس وهم فيها جاثمون في خمس آيات (الأعراف ٧٨، ٩١، هود ٦٧، ٩٤، العنكبوت ٣٧)، وذكرت في أربع آيات الديار تعبيراً عن مقام المؤمنين الذين أخرجوا منها فهاجروا (البقرة ٨٤، النساء ٦٦، الممتحنة ٨، ٩).

إن أكثر ما تردد في القرآن الكريم ذكر البلاد والمجتمعات المستقرة والحياة فيها، وأكثرها وردت ضمن تعابير أكثرها تردداً "البلاد" و "البلد" و "القرية"، ثم "القوم".

فأما البلاد فقد وردت بصيغة الجمع، وبمعنى يدل سياق الآية فيها أن المقصود هو ما نسميه اليوم "الإقليم" أو "الدولة"، وقد وردت في هذا المعنى في ثلاث آيات "لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد" (آل عمران ١٩٦) "فنقبوا في البلاد هل من محيص" (ق٣٦) "إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد" (الفجر ٨).

وورد في القرآن تعبيرا "بلدة" و"بلد" بسياق يدل على أنهما مترادفان، وبمدلولات عامة وخاصة، فأما المدلول العام فقد ذكر "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه" (الأعراف ٥٨) "وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس" (النحل ٧) "حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء" (الأعراف ٥٧) "فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها" (فاطر ٩) "والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتاً" (الزخرف ١١) "رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج" (ق ١١).

وخصت خمس آيات البلد والبلدة بمكة "إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها" (النمل ٩١) "لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد" (البلد ١-٢) "وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً" (إبراهيم ٣٥) "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين" (التين ١-٣).

المدينة والقرية:

وردت في القرآن الكريم المدينة بصيغة الجمع والمفرد إطلاقاً؛ ففي صيغة الجمع "فأرسل فرعون في المدائن حاشرين" (الشعراء ٥٣) "قالوا أرجه وأخاه وأرسل في المدائن حاشرين" (الأعراف ١١١)، "وابعث في المدائن حاشرين" "فأرسل فرعون في المدائن حاشرين" (الشعراء ٣٥، ٣٦).

ووردت المدينة صفة لمكان ذي سمات معينة في تسع آيات (الأعراف ١٢٣، الكهف ١٩، ٨٢، الحجر ٦٧، النمل ٤٨، القصص ١٥، ١٨، ٢٠، يوسف ٣٠). ووردت "المدينة" خاصة بمقر الرسول (ص) والإسلام بعد الهجرة "لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم" (الأحزاب ٦٠)" وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة" (التوبة ١٠١) "ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول

الله" (التوبة ١٢٠).

وورد في القرآن الكريم أسماء بلدان وأقاليم وأماكن، فذكرت مصر (٥) وسبأ (١) وبابل (١) و "مدين" (١٠)، إضافة إلى عدد مما له صلة ببعض الحوادث التي واجهها الرسول (ص) ومنها: "مكة" (١) وبكة (١) والكعبة والبيت الحرام (١) والبيت العتيق (٢) والمسجد الحرام (١٥) ويثرب (١) والمدينة (١) والمسجد الأقصى (١) وبدر (١) وحنين (١).

وأكثر التعابير تردداً في القرآن الكريم هي "القرية"؛ فقد وردت بصيغة المفرد، وبصيغة الجمع، ووصف القرآن الكريم بعض القرى محصنة (الحشر ١٤)، و "حاضرة البحر" (الأعراف ١٦٣). وورد تعبير "أم القرى" للدلالة على مكان ذي نظام إداري خاص متميز "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً" (القصص ٥٩)؛ وذكر في آيتين "أم القرى" وقصد بها مكة "لتنذر أم القرى" (الأنعام ٩٢، الشورى٧)، ولم يصف غيرها مكاناً بأنه "أم القرى"، علماً بأن سياق الآية الأولى يدل على أنها لم تكن الوحيدة في ذلك وللقرى أحوال مختلفة، فبعضها مبارك فيها (سبأ ١٨) وبعضها تعمل الخبائث (الأنبياء ٧٤) و"إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها" (النمل ٣٤).

أوضح عدد من آيات القرآن الكريم العلاقة الوثيقة بين القرى والدعوات الدينية، فإلى القرى يرسل الأنبياء المنذرون (سبأ ٣٤) "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً (القصص ٥٩) "ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون" (الأنعام ١٣١)، وبعض القرى أهلها مصلحون لن يهلكهم الله" وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون" (هود ١١٧)، غير أن كثيراً من القرى أهلها ظالمون (القصص ٥٩)، والقرى الظالم أهلها مصيرها الهلاك (هود ١٠٢) وانظر عن إهلاك القرى، الحجر ٤، الأنبياء ٩٥، الشعراء ٢٠٨، الكهف ٥٩، القصص ٥٩، الأحقاف ٢٧، الأعراف ٤، الحج

٤٥)، وسنتحدث عن أثر الظلم وأعمال المترفين في إهلاك القرى.

القوم:

إن "القوم " أكثر التعابير عن الجماعات تردداً في القرآن، فقد ذكر في نحو ثلاثمائة وتسعين آية، منها عدد يرتبطون فيها مع الأنبياء، مثل قوم نوح (١٤) وإبراهيم ولوط (٦) وهود (٢) إضافة إلى عدد كبير من الآيات التي أشارت إلى قوم الرسول (ص).

وذكر القرآن الكريم أقواماً مرتبطين بالحكام مثل قوم فرعون وثمود والأسباط وأصحاب الأيكة وأصحاب الرسل ومدين وماجوج وياجوج والروم.

ومن الواضح أن القوم جماعة من الناس تتقارب مساكنهم، وتجمعهم روابط عامة تؤثر في مواقفهم وتوجهاتهم العامة، وبخاصة في العقائد والسياسة، حيث تتنوع مواقفهم، فمنهم الذين يعلمون، ويعقلون، ويتفقهون، ويتفكرون، ويسمعون ويذكرون، ويوقنون، ويشكرون، ويتقون، ويعبدون، ويؤمنون، ومنهم كذلك من (المبدلين والخاسرين والمسرفين، والظالمين والمجرمين، والفاسقين).

البدو والأعراب:

وردت كلمة البدو في آية واحدة يتحدث فيها يوسف إلى إخوته ويقول لهم "إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو" (يوسف ١٠٠)، غير أن السياق لا يوضح المقصود بالبدو في هذه الآية.

ووردت كلمة "البادي" في آيتين ذكر في إحداهما "والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد" (الحج ٢٥)، والبادي فيها تقابل العاكفين على المسجد الحرام. ووردت في آية أخرى مقرونة بالأعراب "وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب" (الأحزاب ٢٠)، وهذه الآية هي

الوحيدة التي تقرن البادين بالأعراب.

ووردت "الأعراب" في عشر آيات مدنية، منها ست آيات في سورة التوبة (٩٠، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠١، ١٢٠) واثنتان في سورة الفتح (١١، ١٦) وواحدة في سورة الأحزاب (٢٠) والحجرات (١٤) وكل هذه الآيات مدنية متأخرة، ثلاث منها تصفهم "المخلفون" (التوبة ١٢٠، الفتح ١١، ١٦) وواحدة تصفهم المعذِّرون (التوبة٩٠) عن القتال ووصفتهم آيتان بعدم تشبعهم بروح الإسلام" الأعراب أشد كفراً ونفاقاً" (التوبة ٩٧) "قالت الأعراب آمنا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا" (الحجرات ٤٩).

لا ريب في أن المقصود بالأعراب هم البدو من أهل البوادي، وهم يقابلون "الحضر" وهو تصنيف حضاري يقوم على التباين في الأحوال المادية والمعاشية وما يعكسه ذلك على المستوى الفكري وأساليب الحياة ونظمها وآثارها في المواقف الفكرية والاجتماعية مما يدرسه علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع، علماً بأن التباين لا يقوم على أسس بيولوجية ولا هو جامد محتوم، وإنما هو نتيجة ظروف المعيشة. ويتبدل بتبدلها.

إن قلة ذكر البدو والأعراب لا يدل على عددهم القليل، وإن كان من الصعب تحديد مواضع انتشارهم وأعدادهم وبخاصة في أطراف المدينة وبينها وبين مكة، وبخاصة أنه لا توجد حدود قاطعة بين نظم البدو وأهل المدن، فكثير من النظم البدوية ومثلها تمتد إلى أهل القرى، كما أن كثيراً من البدو يستوطنون القرى والمراكز الحضرية فيأخذون بأساليب حياتها ونظمها ومثلها. ومن الواضح أن كثرة تكرر ذكر القرى في القرآن الكريم وربطها في الدعوات الدينية إنما هو تعبير عن تأكيد الإسلام على أهمية المراكز الحضرية والعمل على إصلاحها لدرجة يمكن فيها القول إن الإسلام دين "الحضرية"، وإنه وجه عنايته الكبرى لنشر الدعوة فيها وإصلاحها.

الملل والأمم:

في القرآن الكريم تعبيران عن جماعات لها عقائد متميزة، هما الملة والأمة، فأما "الملة" فقد وردت في خمس عشرة آية، منها سبع مرتبطة بمجموعات منوعة، منها "ملة قوم" (يوسف ٣٧) وملة اليهود والنصارى (البقرة ١٢٠) وقرنت الملة بإبراهيم في ثماني آيات ذكرت أن ملة إبراهيم كان حنيفاً (البقرة ١٣٥، آل عمران ٩٥، النساء ١٢٥، الأنعام ١٢٣) وأن الرسول (ص) يتبع ملة إبراهيم، وهي الإسلام (الحج ٧٨).

أما "الأمة" في ٦٢ آية منها ٤٩ بصيغة المفرد، وثلاث عشرة بصيغة الجمع فهي ألصق بجماعة الناس مما هي في عقيدتهم، والأصل في الناس أنهم كانوا أمة واحدة (البقرة ٢١٣، يونس ١٩) وبإرادة الله تفرقوا ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة (الشورى ٨، النحل ٩٣، المائدة ٤٨).

ارتبطت الأمة في آية بفرد واحد هو إبراهيم "إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً" (النحل ١٢٠)، أما في بقية الآيات فالأمة مجموعة من الناس تتسم برابطة من العقائد والتقاليد "لكل أمة جعلنا منسكاً" (الحج ٣٤، ٦٧)، وقد بعث الله لكل أمة رسولاً (النحل ٣٦)، ولكل أمة أجل (الأعراف ٣٤، يونس ٤٩، الحجر ٥) ولكل أمة نذير (فاطر ٢٤) ويوم القيامة كل أمة تدعى بكتابها (الجاثية ٢٨).

و "من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون الكتاب" (آل عمران ١١٣)، "وممن خلقنا أمة يهدون بالحق" (الأعراف ١٨١).

أرسل الرسول (ص) "في أمة قد خلت من قبلها أمم" (الرعد ٣٠)، وقد دعا إبراهيم ربه "ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك" (البقرة ١٢٨) "كنتم خير أمة أخرجت للناس" (آل عمران ١١٠) "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" (آل عمران ١٠٤).

تتميز الأمم بتقاليد يسيرون عليها وتتوارثها أجيالهم التالية (الزخرف ٢٢، ٢٣)، ولا بد أن الأمة في هاتين الآيتين يقصد بها السنن التي ورد ذكرها في ست عشرة آية بعضها مرتبطة بالأولين (الأنفال ٣٨، الحجر ١٣، الكهف ٥٥، فاطر ٤٣) وفي الذين خلوا (الأحزاب ٣٨، ٦٢، الفتح ٢٣)، وفي الذين من قبلكم (آل عمران ١٣٧، النساء ٢٦، الإسراء ٧٧).

ولله تعالى سنة ثابتة "لن تجد لسنة الله تبديلا" (الأحزاب ٦٢، فاطر ٤٣، الفتح ٢٣) وهي "سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا" (الإسراء ٧٧).

إن هذه الآيات تظهر أهمية التقاليد واستمراريتها وتنوعها، وأثرها في تدهور الأمم عندما تكون منحرفة وزائفة وفي ديمومتها عندما تكون سنة الله الثابتة التي دعا إليها الأنبياء وخاتمهم الرسول (ص).

أكدت آيات كثيرة من القرآن الكريم أن المبادئ التي يدعو إليها الإسلام قديمة دعا إليها الأنبياء الأولون، وجاءت في كتبهم "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه" (الشورى ١٣) "إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى" (الأعلى ١٨-١٩) "وإنه لفي زبر الأولين" (الشعراء ١٩٦) "قل ما كنت بدعاً من الرسل" (الأحقاف ٩)، ووردت في عدة آيات إن الدين الإسلامي هو دين إبراهيم الحنيف (البقرة ١٣٥، آل عمران ٦٧، الأنعام ١٦١، النحل ١٢٣) وإن محمداً رسول الله وخاتم النبيين (الأحزاب ٤٠).

أخبار الماضين: الأساطير والقصص:

ذكر القرآن الكريم الأولين في آيات كثيرة منها في (الأنعام ٢٥، الأنفال ٣٨، النحل ٢٤، المؤمنون ٨٣، الفرقان ٥، النمل ٦٨، الأحقاف ١٧، القلم ١٥،

المطففين ١٣)، ويظهر تكرر ذكر الأساطير إلى أن أهل مكة كانوا مطلعين عليها، وأنها مدونة "مسطورة" وأنها كانت متداولة للتسلية واللذة الفكرية دون الاهتمام بمدى صحتها أو بما فيها من عبر.

وذكر القرآن الكريم "القصص" وصفاً للكلام عن أخبار الماضين وأشار إلى أن ما يذكره هو القصص الحق وهو أحسن القصص "نحن نقص عليك نبأهم بالحق" (الكهف ١٣) "إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين" (الأنعام ٥٧) "نحن نقصّ عليك أحسن القصص" (يوسف ٣).

إن قصص القرآن الكريم عن الماضين (طه ٩٩)، وهي عن بعض، وليس كل الأنبياء "منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك" (غافر ٧٨) "ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك" (النساء ١٦٤).

إن قصص القرآن الكريم أكثرها عن الأنبياء (هود ١١٠، طه ٩٩) وعن القرى (الأعراف ١٠١)، وفيها عبرة لأولي الألباب (يوسف ١١١) لعلهم يتفكرون (الأعراف ١٧٦). والغرض من ذكرها إظهار ما لاقته الشعوب الأخرى من مصائر من مقاومتها الأنبياء، فهي تذكر بصورة خاصة أهل مكة الذين لم يسبق أن جاءهم نبي قبل الرسول (ص) "لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير" (القصص ٤٦، السجدة ٣)، وقد طلب منهم بإيراد هذه القصص أن يوسعوا آفاق معرفتهم، ويطلعوا على أحوال من سبقهم من الأمم ومصائر من عارض الأنبياء (الأنعام ١١، النحل ٣٦، النمل ١٤) "أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم" (الروم ٩، فاطر ٤٤) "وآثاراً في الأرض" (غافر ٢١)، وكلهم "دمر الله عليهم" (محمد ١٠) وبإطلاعهم على أحوال تلك الأمم "فتكون لهم قلوب يعقلون بها" (الحج ٤٦)، وقد تكررت كلمة (قبل) في القرآن الكريم (١١٧) مرة، سياق معظمها يشير إلى مواقف الأمم الماضية من أنبيائهم. ولما كان غرضها العبرة فإنها اقتصرت على الإشارة إلى الماضي بصورة عامة دون أن

تحدد بدقة زمنه، علماً بأن في القرآن الكريم ذكراً للزمن وأقسامه بما في ذلك الساعة واليوم والشهر والسنة والقرن، وإلى أقسام اليوم من الفجر والصبح والظهيرة والمساء والليل وأقسامه من الغروب والغسق والفجر.

الأنبياء:

ذكر القرآن الكريم أن الله تعالى كان يرسل أنبياء من الرجال (يوسف ١٠٩، النحل ٤٣، الأنبياء ٧) لهم أزواج وذرية (الرعد ٣٨) أرسلوا متتابعين إلى الأمم "ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً" (النحل ٣٦) وإلى الأقوام (نوح ١، يونس ٧٤، الروم ٤٧، هود ٢٥، المؤمنون ٢٣) وإلى القرى (سبأ ٣٤، الزخرف ٢٣)، وقد أرسلوا بالبينات (الأعراف ١٠١، التوبة ٧٠، يونس ١٣، إبراهيم ٩، الروم، ٩، فاطر ٢٥، غافر ٢٢، ٨٣) ليكونوا مبشرين ومنذرين (النساء ١٦٥، الأنعام ٤٨، البقرة ٢١٣، الكهف ٥٦)، ولم يكونوا مجرد دعاة وإنما تجب إطاعتهم "وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله" (النساء ٦٤)، والغرض من إرسالهم الهداية والتوجيه العقائدي، وليس للحصول على مركز سياسي أو جاه وثروة، ويدل سياق الآيات على أن الأنبياء انحصرت دعوة كل منهم بقومه وليس بنظام الحكم القائم في ذلك القوم. ولم يذكر القرآن الكريم نبياً غير الرسول (ص) جعل دعوته عالمية، فإن دعواتهم محدودة بالمجتمع الذي ظهروا فيه، دون أن يحاول النبي تثبيت سلطان له فيما عدا داود وسليمان.

ذكر القرآن الكريم قرابة ثلاثين نبياً، وهم بعض، وليس كل من أرسلهم الله تعالى، واقتصر القرآن على مجرد ذكر أسماء بعضهم في آيات قليلة ومنهم إلياس (٢) وإل ياسين (٢) وذو الكفل (٢) وإدريس (٢)، وأشار إلى ما لاقاه بعضهم من بلاء، ومن هؤلاء زكريا (٧) ويحيى (٥) وأيوب (٤) ويونس (٤)، وأشار إلى علاقة بعض الأنبياء بقومهم، ومنهم نوح (٤٣)، ولوط (٢٧) وشعيب (١١).

وأكثر من تردد ذكره في القرآن الكريم إبراهيم وعيسى وموسى. وقد ذكر كل من هؤلاء مع علاقته بقومه، وما أنزل عليه، ودوره.

ذكر إبراهيم في تسع وستين آية، منها عدة آيات ذكرت ما لقيه من قومه من إعراض وسوء معاملة، إلا أن أكثر الآيات تذكر إقامته في مكة، وبناءه البيت الحرام، وصلة دينه بالدعوة الإسلامية، إذ إن الرسول (ص) يدعو إلى ملة إبراهيم الحنيف المسلم (آل عمران ٦٧، ٨٤، ٩٥، النساء ١٢٥، يوسف ٣٨، الحج ٢٦، الأعلى ١٩).

ويتصل بإبراهيم ولداه إسحاق (١٧) وإسماعيل (١٢)، وقد ذكرا مقرونين بيعقوب وبعدد من الأنبياء في سبع آيات، ومقرونين بأبيهما إبراهيم في خمس آيات، وذكر إسماعيل منفرداً في ثلاث آيات، منها آيتان لعلاقته ببناء البيت ورفع قواعده مع أبيه إبراهيم.

أما عيسى فقد ذكر في خمس وعشرين آية، سمي في سبع عشرة منها "ابن مريم" وفي ثماني آيات "المسيح بن مريم". وذكر النصارى في أربع عشرة آية، منها إحدى عشرة ذكروا فيها مقرونين باليهود، أما الإنجيل فذكر في اثنتي عشرة آية.

وذكر موسى في مائة وست وثلاثين آية، جاء في خمس منها مقروناً عرضياً بأنبياء آخرين وفي كافة الباقي عن علاقته بفرعون، وخروجه من مصر، وعن علاقته ببني إسرائيل، وذكر هارون في عشرين آية، منها خمس عشرة مقروناً بموسى. وذكر داود في ست عشرة آية، أشارت بعضها إلى توليه الحكم وإلى علاقته بالزبور.

وذكر بنو إسرائيل في ثلاث وأربعين آية، أكثرها إلى ماضيهم الغابر، ومنها عدد من الآيات يخاطبهم، مما يوحى بأنها تتعلق بمعاصرة الرسول (ص)،

وجاء في القرآن الكريم "أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل" (الشعراء ١٩٧) "يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي" (الصف ٦) "إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم في يختلفون" (النمل ٧٦).

لبني إسرائيل صلة باليهود الذين ذكروا بهذه اللفظة في تسع آيات وبلفظة "هود" في ثلاث عشرة آية، و"الذين هادوا" في عشر آيات، وقرنوا بالتوراة التي ذكرت في ثماني عشرة آية، إضافة إلى عدد من الآيات ذكرت كتاب موسى.

وذكر من رجال الدين "الربيون" (١) و"الربانيين" (١) والأحبار والربانيون (٢) والأحبار والرهبان (٢).

ومن الواضح أن معظم أسباب كثرة ذكر اليهود في القرآن الكريم ترجع إلى احتكاكهم العقائدي والسياسي بالمسلمين في المدينة، مما فصلت فيه كتب السيرة.

وتجدر الإشارة إلى أن القرآن الكريم ذكر من أهل الأديان الصابئون (٣) والمجوس (١) وجاء ذكرهم عرضاً دون تفاصيل عن عقائدهم أو دورهم.

الحكم وأصحاب السلطة

ذكر القرآن ذا القرنين (الكهف ٨٦) وقوم تبع (الدخان ٣٧).

وذكر قارون مقروناً بفرعون وكان معاصراً له ومن رجاله (العنكبوت ٣٩) وهو من قوم موسى (القصص ٧٦)، وأوتي ما يتمناه الذين يريدون الحياة الدنيا (القصص ٧٩).

وأكثر الحكام ذكراً في القرآن فرعون، وآله وقومه فقد ورد ذكره في ٧٤ آية.

وذكر الطاغوت في ثماني آيات، وهم يؤمنون به (النساء ٥١)، ودعي إلى اجتنابه (البقرة ٢٥٦، النحل ٣٦، الزمر ١٧)، وكان حاكماً مقدساً يتحاكمون إليه (النساء ٦٠) ويقاتلون في سبيله (النساء ٧٦)، وهو وليهم (البقرة ٢٥٧)، وهم يعبدونه (المائدة ٦٠، الزمر ١٧). وذكر الجبت في آية واحدة مقروناً بالطاغوت يؤمن بهما الذين أوتوا نصيباً من الكتاب (النساء ٥١).

وواضح من هذه الآيات أن تقديسه كان في زمن الرسول (ص)، ولم يختص به اليهود، إنما الذين كفروا (البقرة ٢٥٧، النساء ٧٦) وكذلك الذين أوتوا نصيباً من الكتاب (النساء ٥١).

مناصب أصحاب الحكم:

الملك والعزيز والخليفة

ورد ذكر الملك في آيات منها (يوسف ٤٣، ٥٠، ٥٤، ٧٢، ٧٦، الكهف ٧٩، وانظر البقرة ٢٤٦، ٢٤٧، المائدة ٢٠)، وفي سورة النمل أن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها (النمل ٣٤).

ولله تعالى الملك (طه ١١٤، المؤمنون ١١٦، الحشر ٢٣، الجمعة ١، الناس ٢)، وذكر ملك سليمان (البقرة ١٠٢).

وذكر عزيز مصر (يوسف ٣٠، ٥١، ٧٨، ٨٨) دون توضيح ماهية منصبه، ووردت كلمة العزيز وصفاً لذات الله في آيات كثيرة، وقرنت بالحكمة أحياناً، وبالرحمة أحياناً أخرى.

وذكر العزة وأعزة في ثلاث عشرة آية تدل على الهيمنة "أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين" (المائدة ٥٤) "إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة" (النمل ٣٤).

وورد في القرآن أن الله تعالى استخلف في الأرض البشر (الأعراف ١٢٩) وأنه "إن يشأ يذهبكم ويستخلف ما بعدكم من يشاء" (الأنعام ١٣٣، وانظر هود ٥٧).

ووردت بصيغة الجمع خلائف (الأنعام ١٦٥، يونس ١٤، ٧٣، فاطر ٣٩) "ويجعلكم خلفاء الأرض" (النمل ٦٢) "من بعد قوم نوح" (الأعراف ٦٩) "من بعد عاد" (الأعراف ٧٤).

ووردت "خليفة" بصيغة المفرد في آيتين "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة" (البقرة ٣٠) "يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق" (ص ٢٦)، وهذه الآية تحدد الخلافة بأشخاص وتظهر أن الخليفة يمارس الحكم في الأرض بأمر من الله.

الحكم والحكام:

ورد تعبير "الحكم" بصيغة الفعل في خمسين موضعاً، وبصيغة المصدر في حوالي خمسين آية أيضاً، والحكم من أعمال الله، فقد ورد حكم الله، وأن الله

أحكم الحاكمين (٢) وخير الحاكمين (٣).

وذكر القرآن الكريم "وداود وسليمان إذ يحكمان" (الأنبياء ٧٨)، وذكر أن الرسول (ص) يحكم (النور ٤٨، ٥١)، ونص على وجوب تحكيم الرسول (ص) في الشجار بين المسلمين "فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم" (النساء ٦٥)، ويجوز أن يحكم رجال بين الناس (المائدة ٩٥)، والحكم منوع، منه حكم الجاهلية (المائدة ٥٠) وهو مرفوض، والحكم بما أنزل الله "ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون" (المائدة ٤٤) و"هم الظالمون" (المائدة ٤٥)، فالحكم ينبغي أن يكون بالعدل وبما أنزل الله، ومن الواضح أن المقصود في هذه الآيات هو الحكم القضائي وليس الحكم السياسي.

وورد القضاء بصيغة الفعل في تسع وخمسين آية، وبصيغة المصدر في ثلاث آيات، وورد بمعنى الانتهاء في خمس آيات، وبمعنى الحكم في أربع آيات، وأكثر ما ورد بمعنى البت في الأمر "قضي الأمر" وقد ورد في آيات كثيرة، وورد "فاقض ما أنت قاض" (في آية واحدة طه ٧٢).

ووردت كلمة "سلّط، يسلط" في آيتين (النساء ٩٠، الحشر ٦) ووردت كلمة "سلطان" في سبعة وثلاثين موضعاً.

ووردت "وما كان لي عليكم من سلطان" (إبراهيم ٢٢)، وليس عليك لهم سلطان (إبراهيم ٢٢، ٢٥، الحجر ٤٢، النحل ٩٩، الإسراء ٦٥، سبأ ٢١، الصافات ٣٠، الأنعام ٨١).

وورد "ومن قتل مظلوماً فقد جلعنا لوليه سلطاناً" (الإسراء ٣٣).

من الواضح أن السلطان المبين مقصود به البرهان[1]، أما المواضع

---

(١) يذكر ابن عباس "كل سلطان في القرآن فهو حجة" (تفسير الطبري ٨٢/١٩).

الأخرى التي ذكرت فيها كلمة "السلطان" فبعضها يحتمل أن يكون معناه "البرهان" أو "صاحب السلطة"، وهي في أي حال تدل على صاحب السلطة دون تحديد أو حصر بمنصب محدد.

وقد تحدد بعد الإسلام استعمال هذه الكلمة لصاحب السلطة بصرف النظر عن ماهية منصب شاغلها، فأصبحت تطلق أحياناً على الخليفة وعلى الولاة وعلى ممارس السلطة المركزية من القضاة وأصحاب الشرط والعمال على السوق(١).

شارات الحكم:

ذكر القرآن الكريم "العرش" لله تعالى ولبعض الحكام، فأما صلة العرش بذات الله فقد ذكرت عدة آيات أن الله تعالى "رب العرش" (التوبة ١٢٩، الأنبياء ٢٢، المؤمنون ٨٦، ١١٦، النمل ٢٦، الزخرف ٨٢)، وذكر أن الله تعالى "ذو العرش" (التكوير ٢٠، البروج ١٥) وأنه "استوى على العرش" (الأعراف ٥٤، يونس ٣، الرعد ٢، طه ٥، السجدة ٤، الحديد ٤).

وذكر القرآن الكريم عروشاً للحكام من البشر، فكانت ملكة سبأ "امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم" (النمل ٢٣).

وذكر القرآن الكريم "الحجاب" يكلم تعالى الرسل من ورائه (الشورى ٥١) ويتخذه البشر (الإسراء ٤٥، مريم ١٧) ولم يشر القرآن إلى اتخاذ الحكام الحجاب، وإنما ذكر أن البشر يتخذون الحجاب (الإسراء ٤٥، مريم ١٧).

---

(١) انظر مثلاً: الموطأ لمالك ٦١٠/١، ١٧٤، وانظر مثلاً ابن سعد ٢-٢/ ١٣١، ٣-٢٠٦/١ وانظر عن تطور مفهومها في العهود الإسلامية التالية: لغة السياسة في الإسلام، لبرنارد لويس، ٩ فما بعد.

الإمام وأولو الأمر:

ورد في القرآن الكريم تعبير "إمام" بصيغة المفرد في سبع آيات، وبصيغة الجمع في خمس آيات منها ما يتصل بالكتب "إمام مبين" (الحجر ٧٩، يس ١٢) و "كتاب موسى إماماً" (هود ١٧، الأحقاف ١٢).

ووردت كلمة "إمام" إشارة إلى فرد يكون الأقدم بين أقرانه، ولعله في ذلك يتسم بما تتميز به جماعته وقد توحي بأنه ممثلهم، وقد يكسبه هذا التمييز سلطة عليهم، وفي هذا النطاق وردت كلمة "إمام" بصيغة المفرد في ثلاث آيات "إني جاعلك للناس إماماً" (البقرة ١٢٤) "واجعلنا للمتقين إماماً" (الفرقان ٧٤) "يوم ندعو كل أناس بإمامهم" (الإسراء ٧١).

ووردت بصيغة الجمع "وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا" (الأنبياء ٧٣) "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا" (السجدة ٢٤) "ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين" (القصص ٥) "وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار" (القصص ٤١) وكل هذه الآيات توحي أن للإمام سمات التوجيه الفكري والروحي، وله الأقدمية على غيره، وهو يعمل في المجتمع وليس منفرداً فسلطته عقائدية، وقد ترتبط معها سلطات سياسية.

ووردت كلمة "أولو" في ثلاث وأربعين آية ذكر منها "أولو الألباب" في ١٥ آية، كما وردت أولو القربى، وأولو الأبصار، وأولو قوة، وأولو بأس وأولو العلم والقوة، والعزم والضرر والأجنحة.

وورد ذكر أولو الأمر في آيتين "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" (النساء ٥٩) "ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم" (النساء ٨٣) وإن هذه الآيات تظهر أن أولي الأمر جماعة وليس شخصاً منفرداً، كانوا في زمن الرسول (ص) تجب طاعتهم، ويحسن رد

بعض الأمور العامة إليهم، وإشارة القرآن تدل على مكانتهم في الإدارة، حيث إن الآية ذكرتهم وحدهم بعد الرسول (ص) وأوجبت طاعتهم، غير أن كتب السيرة والتاريخ لم تسم أحداً كولي أمر، كما أن الآيات لا توضح طبيعة الأمر وهل هو متعلق بالأمور السياسية أم الإدارية، أم القضائية، وفي كل حال، وما مدى الناس الذين يشملهم الأمر، وهل هم عشيرة أو مجموعة عشائر أو جوانب من الإدارة تعم كل الناس، علماً بأن كلمة "أمير" لم ترد في القرآن الكريم.

لم يذكر القرآن الكريم "الانتخاب" وإنما ذكر "الاختيار" و "الاصطفاء". فأما الاختيار فقد ذكر في أربع آيات (الأعراف ١٥٥، الدخان ٣٢، طه ١٣، القصص ٦٨) وهي للأنبياء والناس. أما الاصطفاء فذكر في اثنتي عشرة آية أكثرها عن الأنبياء وبخاصة إبراهيم.

الدمار والهلاك:

أرجع القرآن الكريم دمار المجتمعات والأمم إلى تصرف المهيمنين على الحكم، وإلى سوء تصرفات طبقات حددها في المجتمع.

وفي القرآن الكريم تعابير متعددة عن التعسف في استعمال السلطة، وأبرزها الطغيان والتجبر والاستكبار والظلم، والطغيان أكثر التعابير تردداً، فقد ذكرت عبارة "طغيانهم يعمهون" في خمس آيات (البقرة ١٥، الأنعام ١١٠، الأعراف ١٨٦، يونس ١١، المؤمنون ٧٥)، وذكر طغيان فرعون في أربع آيات (طه ٢٤، ٤٣، النازعات ١٧، الفجر ١١). وذكر طغيان كل من قوم نوح (النجم ٥٢) وقوم ثمود (الحاقة ٥، الشمس ١١).

كما ذكر في أمور أخرى مثل طغيان الماء (الحاقة ١١)، والبصر (النجم ١٧)، والميزان (الرحمن ٨).

وذكر "الجبار" في عشر آيات، منها بطش الجبارين (الشعراء ١٣٠)، والجبار في الأرض (القصص ١٩)، والعصي (مريم ١٤)، والشقي (مريم ٣٢)، وذكر الجبار العنيد في آيتين (هود ٥٩، إبراهيم ١٥)، المتكبر في آيتين (غافر ٣٥، الحشر ٢٣).

وذكر المستكبرين ووصفوا بأنهم كافرون ومجرمون، ولهم تبع يسيرون بآرائهم (الأعراف ٧٥، ٨٨، إبراهيم ٢١، سبأ ٣١، ٣٢، ٣٣، غافر ٤٧، ٤٨).

أما الظلم فمن أبرز عوامل هلاك القرى، وذكر أن كثيراً من القرى أهلها ظالمون (النساء ٧٥، العنكبوت ٣١)، والهلاك يحدث في القرى الظالمة (الحج ٤٥، الأنبياء ١١، هود ١٠٢، الكهف ٥٩)، ولا ريب أن المقصود بذلك أن أهلها هم الظالمون (النساء ٧٥، القصص ٥٩)، وانظر عن أهل القرى: (الأعراف ٩٦، ٩٧، ٩٨، يوسف ١٠٩، الحشر ٧).

والظلم لا يقتصر على القرى وأهلها، وإنما يمتد إلى الأقوام (آل عمران ٨٦، المائدة ٥١، الأعراف ٤٧، ١٥٠، التوبة ١٩، ١٠٩، يونس ٨٥، المؤمنون ٢٨، ٤١، ٩٤، الشعراء ١٠، القصص ٢٥، ٥٠، الحشر ١٧، الجمعة ٥، التحريم ١١).

ومن الظلم الشرك بالله (لقمان ١٣)، والكفر به (النساء ١١٦)، ومعصيته (الأحزاب ٣٦).

وذكر الظلم في القرآن الكريم عاماً لعمل ذميم يسبب إهلاك المجتمعات والمجموعات البشرية. ولم يحدد القرآن ما إذا كان الظلم مقصوراً على التجاوز على الحقوق السياسية العامة، أم يشمل المكانة الاجتماعية والحقوق الخاصة، وهل يقتصر الظلم على طبقات وجماعات في القرية أو القوم، أم يمتد إلى خارجها والمناطق الأخرى.

وذكر القرآن الكريم ما يشير إلى أن الترف من أهم عوامل تدمير القرى وإهلاكها فقال تعالى: "وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً" (الإسراء ١٦)، وقال: "وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون" (سبأ ٣٤).

ذكر الترف في ثماني آيات تنكر كلها أهله. وأشارت آية إلى قولهم "إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون" (الزخرف ٢٣)، وذكرت عدة آيات أن المترفين "الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا" (المؤمنون ٣٣) وانظر: (الواقعة ٤٥، الأنبياء ١٣)، وتؤكد الآيات على أن الجحيم هو مصير المترفين في اليوم الآخر (المؤمنون ٦٤).

ولا بد أن للترف صلة بالبطر الذي ذكر القرآن الكريم أنه سبب في إهلاك القرى "وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها" (القصص ٥٨)، ونصح المسلمين "ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً" (الأنفال ٤٧).

للترف صلة وثيقة بالإسراف، وإن لم يكونا مترابطين، والإسراف هو الغلو والتطرف. وقد ذكر في ثلاث عشرة آية كلها، ما عدا واحدة، في معرض القدح. وذكر (المسرفون) في عشر آيات أشارت إلى أن فرعون كان من المسرفين (يونس ٨٣، الدخان ٣١)، وأن المسرفين لا يؤمنون بآيات ربهم (طه ١٢٧)، وأن الله تعالى لا يحب المسرفين (الأنعام ١٤١، الأعراف ٣١)، ولا يهدي من هو مسرف كذاب (غافر ٢٨، ٣٤). ويأمر بعدم طاعتهم (الشعراء ١٥١)، وهم من أصحاب النار (غافر ٤٣، وانظر: الزخرف ٥، الذاريات ٣٤).

ومما يتصل بالإسراف التبذير، وقد ورد النهي عنه في آية (الإسراء ٢٦) ،

ووصف المبذرين في آية أخرى بأنهم "كانوا إخوان الشياطين" (الإسراء ٢٧).

لا يعني مقت الترف والإسراف كره الإسلام للمال والغنى، فقد ترددت في القرآن بمعرض الرضى التعابير الدالة على الغنى والنعمة والكسب، والرزق، والذخر، والرغد، والاستمتاع، ووردت كلمة "أغنى" في آيات كثيرة، بعضها بمعنى الغنى، ووصف تعالى ذاته بأنه "الغني"، وأنه تعالى يغني البشر (الحاقة ٢٨، الليل ٨).

وقال عن الرسول (ص) "ووجدك عائلاً فأغنى" (الضحى ٨) وذكرت "نعمة الله" كثيراً " واذكروا نعمة الله" (البقرة ٢٣١، آل عمران ١٠٣)، والرغد (البقرة ٣٥، ٥٨، النحل ١١٢).

ومن عوامل الإهلاك ما يقوم به المبطلون (الأعراف ١٧٣)، وهم ممن كان يقاوم الدعوة (العنكبوت ٤٨)، وسيخسرون يوم القيامة (غافر ٧٨)، وقد ذكر الباطل بصيغة الفعل والاسم في آيات كثيرة في القرآن الكريم.

ومن عوامل تدمير القرى والمجتمعات أعمال المجرمين، وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم من المستكبرين "وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها" (الأنعام ١٢٣) "فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين" (الأعراف ١٣٣، يونس ٧٥، وانظر: الجاثية ٣١)، وهم يضلون الناس (الشعراء ٩٩)، ويعادون كل نبي (الفرقان ٣١) "سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد" (الأنعام ١٢٤).

ذكرنا في الكلام عن المجرمين أنهم ممن استكبروا، وفي القرآن الكريم

إشارة إلى دور الكبراء في تضليل الناس، فيوم القيامة يقول الكافرون "ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا" (الأحزاب ٦٧) "وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله" (سبأ ٣٣)، وقد ذكر الكبر في القرآن الكريم وصفاً للتقدم في العمر وكذلك بمعنى المكانة الكبيرة، بما في ذلك صفة الله تعالى، والأعمال الأخرى.

إن الآية (٦٧) في سورة الأحزاب تقرن بالكبراء السادة، وقد ذكروا في آيتين أخريين، في إحداهما أن الله تعالى بشّر يحيى بولد "مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحصوراً" (آل عمران ٣٩)، وتذكره الأخرى عن زوج التي أرادت إغراء يوسف (يوسف ٢٥)، ولم تحدد صفات السادة الذين لهم مع الكبراء الهيمنة على الناس.

إن الدمار والهلاك يشمل القرى (الحجر ٤، الشعراء ٢٠٨، القصص ٥٨، الأحقاف ٢٧، الأعراف ٤، الأنبياء ٦، الإسراء ١٦، ٥٨، الكهف ٥٩، العنكبوت ٣١، الحج ٤٥)، ويشمل كذلك الأقوام فتدمر تدميراً (الإسراء ١٦، الفرقان ٣٦، وانظر الشعراء ١٧٢، الصافات ١٣٦، النمل ٥١)، فهم يهلكون (ص٣)، ولا يرجعون (يس ٣١) لا تحس منهم أحداً (مريم ٩٨)، وتصبح بيوتهم خاوية (النمل ٥٢) خاوية على عروشها (الكهف ٤٢، الحج ٤٥)، وتهلك القرون أيضاً (يونس ١٣، القصص ٤٣، ٧٨، السجدة ٢٦، يس ٣١، الإسراء ١٧، طه ١٢٨).

يقتصر التدمير على السكان من البشر، أما المساكن فتبقى (الأحقاف ٢٥، الأنبياء ١٣) "مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا" (القصص ٥٨)، ويمكن مشاهدة الآثار الباقية للقرون الخالية للعبرة من عاقبة الأعمال السيئة "أفلم يسيروا

في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم" (يوسف ١٠٩) (وانظر الحج ٤٦، الروم ٩، ٤٢، غافر ٢١، ٨٢، آل عمران ١٣٧، الأنعام ١١، النحل ٣٦، النمل ٦٩).

وإذا كانت القرى والأقوام تفنى، فإن البشرية لا تفنى "لا تبديل لخلق الله" (الروم ٣٠).